تاريخ حلب الشهباء

لجناب جرجي افندي يني (١)

حلب الشهباء مدينة قديمة العهد جداً قال بعض المؤرخين من العرب انها سُمّيت بذلك لحادثة جرت مع سيدنا ابرهيم فانهُ كان يحلب بقرة شهباء على التل القائمة عليهِ قلعة حلب وذلك حين مروره من بلاد ما بين النهرين الى كنعان فكان اهل القرية يقولون ان ابرهيم حلب الشهباء اما المدققون في التاريخ فكانوا يعتقدون ان حلبًا في حلبون التي ذكرها حزقيال وشاليبون التي ذكرها سترابو وبتولماي . على ان بعض السياح والمدققين يخالفونهم في ذلك لاسيما وقد وجدوا حلبون قريبة من دمشق اما الرومان فيدعون حلبًا باسم بيريا . قبل ان سولوقس نيكانور ملك سورية هو الذي دعا حلبًا باسم بيريا فظلت كذلك حتى زمان العرب والفتح الاسلامي

وكانت بيريا او حلب بلدة تجارية راجت فيها التجارة الى الدرجة القصوى حتى صار اهلها على جانب عظيم من الغنى والثروة وكانت مركز حكومة رومانية تمتد حتى الفرات . ولما خفقت الاعلام العربية في سورية واستبد الاسلام في فلسطين امر الخليفة عمر وهو في بيت المقدس ان يكون يزيد بن ابي سفيان في فلسطين والثغور وابو عبيدة بن الجرّاح في سورية الشمالية من حوران حتى حلب وحرضهُ على فتح المدائن التي لم تكن قد عنت لهم بعد . فسار ابو عبيدة واتى قنسرين فخرج اليهِ اهلها مسلّمين فقبلهم بعد ان تعهدوا ان يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ثم سار الى حلب وكانت ذات قلعة واسوار وحصون منيعة لا يعادلها موضع في الشام وكان القيصر الروماني قد اقام فيها حاكمًا يتولاها مع ملحقاتها . ففي غضون ذلك مات الحاكم تاركًا ولدين احدهما يقال لهُ يوكنا والآخر يوحنا وكان يوكنا رجلاً شجاعًا وقرمًا مناعًا امّا يوحنا فكان يحب الانفراد والانزواء ويفضل السكينة والراحة على الحرب والقتال والحكومة وكان مولعًا بالدراسة والآداب والدين . فلما شاعت اخبار دنو الفاتحين من حلب خافت الناس من القتال لانهم تيقّنوا تعطيل تجارتهم وخرابهم اذا انتشبت بين الفئتين نار القتال . اما يوكنا فكان يرغب في الحرب والصدام ولذلك وبّخ اخاهُ يوحنا الذي طلب اليهِ بلسان الشعب ان يسلّم للفاتحين وخرج يوكنا ببعض من رجالهِ للقاء العرب . اما التجار في المدينة فاجتمعوا وقرّ رايهم ان يسلموا للفاتحين فيعاملوهم بالحلم والشفقة ولذلك بعثوا وفدًا منهم لمقابلة ابي عبيدة امير العرب فبلغت رسل التجار مضارب القائد وعقدوا واياهُ شروط تسليم المدينة . اما يوكنا فلم يعلم بما كان على انهُ قاتل الطليعة فكسرها وعند اتصال القتال علم بما كان من التجار فانسحب من القتال ودخل المدينة واخذ يقتل من اهلها ناسبًا اياهم الى الخيانة فعلم اخوهُ يوحنا

(١) وهي مقتطفة من كتابهِ الذي طبعهُ حديثًا في تاريخ سورية

بذلك راقبل يرجوه العفو عن الناس فوبخه وقال له لعلك انت سبب الخيانة وضربه فقطع راسه . واشتد الهرج وجاء العرب فكسروه وقتلوا من جيشه كثيرين فدخل القلعة وهي خارج المدينة وكانت منيعة عن طارقها وتم استيلاء الاسلام على حلب دون قلعتها . وعقد ابو عبيدة وخالد بن الوليد مشورة لحصرها ثم قرّ قرارهم عليه فحصروها شديدًا واقاموا على ذلك خمسة شهور فلم ينالوا اربًا فكتب ابو عبيدة الى الخليفة يستاذنه بالانسحاب عن الحصر فاجابه ان يقيم عليها ولا يبارحها حتى يفتحها لئلاّ يستخف به العدو ويبعث اليه مددًا من الرجالة والفرسان وبعد ان اقاموا زمانًا ثار من بينهم عبد يقال له دامس وكان من فحول الرجال وطلب ان يصحب ثلاثين من نخبة الابطال وسار فتوصل بحيلة الى القلعة وقتل بعض الحرّاس وكانوا سكارى وفتح الابواب فدخلها قومه الفاتحون وكادوا ينتكون بالذين فيها لو لم يطلبوا الامان فعرض عليهم الاسلام فاسلم يوكنا وبعض رجاله ونسائه واخلص يوكنا للاسلام الخدمة حيث اصبح من المجاهدين وله وقائع مذكورة

وضمت حلب الشهباء الى الدولة الاسلامية بعد ان تم فتح اكثر المدن السورية وحسبت كسائر المدن عمالة لا اهمية لها في التاريخ الخاص لولا تعلقها احيانًا بالحوادث الكبيرة . اما التغيرات والانقلابات التي تناوب حدوثها في الامة الاسلامية فلم تهمل حلبًا بل ان هذه المدينة القديمة شاركت سائر انحاء الشام باحوالها

وكانت حلب في اواسط الجيل الرابع الاسلامي عاصمة ملكية لسرير دولة بني حمدان الذين كانوا يخطبون للخلفاء العباسيين فتولى الخطة الشامية اي السورية كثيرون من هؤلاء السلاطين والامراء واشهرهم سيف الدولة بن حمدان وهو اول من اخذ حلبًا وبنيّة الشام للكر وكان سيف الدولة بطلاً مجاهدًا اقام بحروب كثيرة وغزا الروم مرّات متعددة وصدّ حملاتهم وهو الذي امتدحه ابو الطيب المتنبي الشاعر المشهور في كثير من قصائده . توفي في حلب سنة ٣٥٥ وتولى الخطة عوضه ابنه ابو المعالي شريف فاصلح احوالها وزاد عمارتها . ثم اتصل الملك في حلب لسعد الدولة بن حمدان وفي سنة ٣٨٥ توفي بالنائح وكان كبير دولته مولاه لؤلؤ فنصب ابنه ابا الفضائل واخذ له العهد على الاخبار . على ان الخبر بلغ للحال عزيز مصر وهو يومئذٍ مالك قسمًا كبيرًا من سورية وكان بعض الكبار قد اغراه بملك حلب فارسل قائده منجوتكين في العساكر ليأخذها فجاء وحاصرها فملك البلدة . واعتصم ابو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة فبعثا يستنجدان ملك الروم وكان يقاتل البلغار فارسل الى نائبه في انطاكية ان يسير اليهم فسار في خمسين الفًا ونزل جسر الحديد على وادي العاصي فاتاه منجوتكين وقاتله فهزمه حتى انطاكية واتاها فنهب قراها وعاث في نواحيها واحرقها وكان ابو الفضائل ولؤلؤ قد خرجا من القلعة واخذا ما في المدينة من الزاد والمهمات

واحرقا الباقي وبعد ان فعل منجوتكين ما فعل مع الروم عاد فحاصر ابا الفضائل ولؤلؤا في حلب وراسل لؤلؤ ابا حسن المغربي في الوساطة فتم في الصلح فصالحهم منجوتكين وعاد الى دمشق مركز ولايته ولم يكتب للعزيز فغضب العزيز فكتب اليه يوبخه ويامره بالعود الى الحصار فعاد واقام على حصار حلب ثلاثة عشر شهرًا فبعث ابو الفضائل ولؤلؤ مراسلة الى القيصر الروماني يحرضه فيها على استرجاع انطاكية وكان الامبراطور قد توغل في البلغار فرجع عنها واكثر من العسكر وجاء حلب فعلم منجوتكين واجفل عنها بعد ان احرق خيامه وهدم مبانيه وجاء ملك الروم فخرج اليه ابو الفضائل ولؤلؤ وشكراه ورجعا الى بلدتهما. اما الملك فسار الى حمص وشيزر وتسلمهما وبعد ذلك تار ابو نصر لؤلؤ على مولاه ابي الفضائل بن حمدان واخذ البلد منه ومحا الدعوة العباسية وخطب للحاكم العلوي عزيز مصر وهكذا عادت حلب لدولة العبيديين

ولما مضى الجيل الرابع من تاريخ الهجرة وضعف امر العبيديين وانتضى امر بني حمدان من الشام والجزيرة تطاولت العرب الى الاستيلاء على البلاد فاستولى بنو عقيل على الجزيرة واجتمع عرب الشام فتقاسموا البلاد على ان يكون لحسان بن مفرج بن دغفل وقومه طيء من الرملة الى مصر ولصالح بن مرداس وقومه من بني كلاب من حلب الى عانة. ثم دخلت حلب في حكم السلاجقة كسائر سورية وظلت كل ايام الصليبيين خاضعة للاسلام يتولاها منهم اتابك وزنكي وبعدها نور الدين. وجيش زنكي على الافرنج جيوشًا جرارة وقاتلهم وكان النصر بينهما سجالًا ولم ينل الصليبيون من حلب مارباً مع انهم انوها وحصروها. قال احد المؤرخين من الافرنج وفي سنة ١١٢٤ م حصر الصليبيون حلبًا على ان فيضان النهر بغتة اضرّ بعسكرهم ضررًا بليغًا فانحجبوا عنها الى انطاكية

ولم تنفك حلب عرضة للزلازل تتعاقب عليها مرة بعد اخرى فانه في سنة ١١٢٩ م حدثت زلزلة هائلة فيها عقبتها زلزلة اخرى سنة ١١٧٠ فهدمتها على انها عادت فترممت وتولاها السلطان صلاح الدين بن ايوب. ودخلت في دولته ثم انتقلت لدولة الماليك يا تتقال سورية اليهم فاصبحت تحت لوائهم عاصمة الولاية السورية واستمرت كذلك الى ان دهمها بلاء تيمورلنك وكان الخليفة قد اصدر امرًا الى النائب بدمشق وسائر النواب والحكام بان يسيروا الى حلب ليردأوا عنها ذلك الويل وكان نائب دمشق سيدي سودون فتجهز ودخل في شهر صفر سنة ٨٠٣ فبلغ حلب واستعد للمبارزة والقتال. وكان تيمورلنك قد اتى عين تاب واستلكها من اركماس الذي فرّ ولجأ بحلب فجرّ امرًا الى اهل حلب ان يقطعوا الخطبة لخلفاء مصر ويخطبوا له ويرسلوا له اطلاميش وكان عنده وفرّ ولجأ بالخليفة وغير ذلك مما يدل على اخضاعهم. فلم يلتفت سيدي سودون الى الرسالة بل ضرب عنق الرسول وتاهب للقاء ذلك الناغ وعقد مع النواب الذين عنده مشورة فاشار

صاحب طرابلس الشام بما يعود لخير حلب على ان نائبها تمرداش لم يرضها بل حمل القوم على مضادتها . قال احد كتبة الاسلام وكان تمرداش قد خالف الجمهور ووافق في الباطن تيمور وهذا يظهر ان الخيانة كانت علة فتح حلب!!

ولما كان الخميس تاسع ربيع الاول نازل تيمورلنك حلب وكان نائبها المقر السيفي تمرداش وقد حضرت اليه عساكر البلاد الشامية وعسكر دمشق مع نائبها سيدي سودون وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفي شيخ الخاصكي وعسكر حماه مع نائبها المقر السيفي دقاق وعسكر صفد وغيرها فاختلفت آراؤهم فمن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار وقائل اخرجوا ظاهر البلد تلقاء العدو بالخيام . فلما رأى المقر السيفي اختلافهم اذن لاهل حلب في اخلائها والتوجه حيث شاءوا وكان نعم الراي فلم يوافقوا على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر وقد تيمورلنك فقتلة نائب دمشق قبل ان يسمع كلامه ويوم الجمعة حصل بين الاطراف تناوش يسير . فلما كان يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الاول زحف تيمورلنك بجيوشه وقبيلته فولى المسلمون نحو المدينة وازدحموا في الابواب ومات منهم خلق عظيم والعدو وراءهم يقتل ويأسر واخذ تيمورلنك حلب عنوةً بالسيف وصعد نواب المملكة وخواص الناس الى القلعة وكان اهل حلب قد جعلوا غالب اموالهم فيها . وفي يوم رابع عشر شهر ربيع الاول اخذ القلعة بالامان وفي ثاني يوم صعد اليها وفي آخر النهار طلب علماءها وقضاتها فجاءها عدد منهم ابن الشحنة المؤرخ فالقى تيمورلنك عليهم المسائل وما اجابوه وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة مع انه كان قد امن الاهلين وقال ان لا يقتل احداً واخذ كل ما كان فيها من الاموال والاقمشة والامتعة ما لا يحصى مما لم يأخذه من مدينة قط . وعوقب غالب المسلمين بانواع من العقوبة وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه . ونزل تيمورلنك من القلعة واقام بدار النيابة وصنع وليمة على ذي المغلي ووقف سائر الملوك والنواب في خدمته وادار عليهم كؤوس الخمر والمسلمون في عقاب وعذاب وقتل واسر وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب ونبش الى آخر ربيع الاول .

قيل ان ذلك الظالم فتك بكثيرين من الناس في حلب حتى اقيمت بناية من رؤوس القتلى ثم سار الى الشام ولم تر مدينة نصيباً اقل من حلب ولما كان سابع عشر شعبان من السنة المذكورة وصل عائداً من الشام الى الجيول شرقي حلب ولم يدخلها بل امر المقيمين بها من جهته بتخريبها واحراق المدينة ففعلوا . قيل ان النار شبت بالمدينة ثلاثة ايام فلم تبق ولم تذر

قال مؤرخ آخر من المسلمين ان تيمورلنك لما فتح المدينة والتجأ نواب مدن سورية الى القلعة

وضايقهم فيها تقدم تمرداش نائب حلب فانزلهم بالامان اليه فقبض على سيدي سودون وشيخ علي الخاصكي والتوبقا العثماني وكان نائب صفد وعمر بن الطمان نائب غزة وعلى الجميع بالقيود اما تمرداش فانعم عليه . قيل ان الذي حمل تيمورلنك على بناء القبة من الرؤوس انما هو نسيب الرسول الذي قتله نائب دمشق فانه طالبه بالثار فاباح له ان يعمل ما اراد ففعل على ان المؤرخ ابن الشحنة يقول : وجاءنا امير يعتذر ويقول ان سلطاننا لم يامر باحضار رؤوس المسلمين وانما امر بقطع رؤوس القتلى وان يجعل منها قبة اقامة لحرمته على جرى عادته الخ . اما النواب الذين معه فقد قتلوا الواحد بعد الآخر على ان سيدي سودون لم ينج من الوبال فمات وهو اسير واستقر في نيابة دمشق تنكزي وردى

وعادت حلب الى العمران فجاءتها الاعلام العثمانية تخفق فوق رؤوس جيوش يتقدمها النصر والفتح المبين وكان الغوري صاحب مصر قد علم بذلك فوافاها حتى سهول حلب فاشتبك القتال بينهما وفاز السلطان سليم العثماني بالنصر على عدوه الغوري وفر المكسور منهزمًا ومات في اثناء انكساره واخذ السلطان حلبًا وغيرها سنة ١٥١٧ .

وجعلت الدولة العثمانية حلبًا من ولايتها على انها لم تكن منفصلة عن سورية بل منضمة اليها وكانت الدولة ترسل اليها النواب والعمال كما ترسل لسائر المدن والثغور فاخذت المدينة ترتقي في التقدم والنجاح ولاسيما لانها كانت مركزًا مهمًا للتجارة ومفتاحًا لداخلية اسيا حيث وافاها كثيرون من الافرنج . وفي سنة ١٥٨١ تشكلت الشركة الشرقية بامر الملكة اليصابات الانكليزية وبعد ذلك بزمن يسير فتحت محلاً للتجارة في حلب مع بلاد فارس والهند في الطريق البرية وتعين للدولة المشار اليها قونسلوسًا وعرفة حضرة السلطان (ربما كان ساكن الجنان السلطان مراد الثالث فان مدة خلافته دامت حتى ١٥٩٥) وكان في حلب وغيرها من الممالك العثمانية كثير من المحلات التجارية الفرنسوية والفينيسية وفي سنة ١٧٤٠ كانت النزلة من الانكليز قد كثرت فكان لهم قنصل وعشرة تجار وقسيس وكاتب اسرار وطبيب وفي سنة ١٧٥٣ عدت الدور فكانت ٨ بما فيه دار القنصل وفي سنة ١٧٧٣ اصبح عددها اربعًا فقط فان افتتاح طريق التجارة راسًا من الهند حول راس الرجاء الصالح كان سببًا فعالاً لتاخير الشركة الشرقية . ومن تجار هذه الشركة من زار تدمر سنة ١٦٩١ وادهش اوربا بوصف خرابتها وصنا مدققًا وهم هنري موندرل وهو مؤلف الكتاب المشهور وعنوانه سفر من حلب الى اورشليم سنة ١٦٩٧ للميلاد وكان قسًا للتجار المذكورين ومنهم الدكتور باتريك روسل مؤلف تاريخ حلب الطبيعي واخوه الكسندر مؤلف المجلد الثاني من ذلك الكتاب الغريب وكانا كلاهما طبيبين لابناء وطنهما في اواسط الجيل السابع عشر

والظاهر من تعديل نشرة المسيو داريغو ان الحكومة العثمانية وتردد الاوربيين قد نفعا حلبًا كثيرًا فانهُ روى ان عدد سكانها بلغ ٢٨٥٠٠٠ في سنة ١٦٨٢ وقال رسول المذكور آنفًا في كتابهِ ألفهُ بعد ذلك المؤلف بنحو قرن ان عددهم نحو ١٢٥٠٠٠ وذكر غيرهما من المؤرخين المتاخرين انهُ لا يظن ان سكان حلب زادوا عن ١٥٠٠٠٠ نفس في اي وقت كان . ورجح المدققون الرواية الاولى

وفي سنة ١٦٠٥ عصى علي باشا جانبلاط على الدولة في زمان السلطان احمد الاول وسار الى بعض مدائن سورية فاخذها حتى بلغ دمشق واخذها وسنة ١٦٠٧ استرجع السلطان احمد المدن السورية بتدبير محمد باشا الصدر الاعظم ثم اشتبكت حرب مهولة دامت ثلاثة ايام بالقرب من حلب ولم يظهر النصر لاي الفريقين حتى شاعت الاخبار بقدوم والي الشام ووالي طرابلس فخاف علي باشا واذعن للدولة العلية وسار الى الاستانة العلية فاعتبرهُ الوزير واكرمهُ وسمح لهُ ان يعود الى سورية واستقرَّ حال حلب حتى سنة ١٦٥٨ فجرى في نواحيها والموصل حركة من ابرهيم باشا واحد المدعين بالخلافة العثمانية وجرى بين جنود الدولة وذلك الثائر حرب مهولة افضت الى اسر المدعي وابرهيم باشا

وفي سنة ١٧٢٢ اصيبت حلب بزلزلة مهولة دمَّرت اكثر بيوتها وقتلت كثيرين من اهلها. وفي زمان استيلاء الحكومة المصرية على سورية كانت حلب ايضًا قد عنت لها وقد اقام بها المرحوم ابرهيم باشا بعض اعمال لم تزل شاهدة على عظمتهِ وبنى فيها بعض ابنية ثم عادت الى الدولة العلية كسائر سورية

وها هي حلب الآن راس ولاية عثمانية باسمها تدير جملة من المتصرفيات الَّا ان تجارتها وقفت دون ذلك التقدم السريع لان فتح برزخ السويس قد اضرَّ بها بتقريبهِ الهند الى اوربا

لوي بلان

نعى لنا التلغراف هذا الكاتب المؤرخ السياسي المشهور في امة الفرنسيس بثبات الراي وبراعة الاسلوب ونحن مترجمون بهِ بيانًا لاحوالهِ وتذكرةً للمتاملين

رأينا الرجل عام ١٨٨٠ نحيفًا ربعة مشوب الراس بالشيب وسمعناهُ في مجلس النواب خطيبًا وتري الصوت لين الكلام قليل الاشارة ظاهر الاقتناع وكان البادي عليهِ من سنهِ نحو الخمسين مع كونهِ في الواقع من وراء خمس وستين فقد ولد بمدريد في الثامن والعشرين من شهر تشرين